الفصل الثاني

الإيمان بوحدانية الله جلَّ جلاله

الفصل الثاني

الإيمان بوحدانية اللّه جلّ جلاله

من لوازم الإيمانِ بوجود اللّه عزّ وجل، الإيمانُ (بوحدانيته) تعالى، فمن آمن بأنّ اللّه موجودٌ، وأنه هو الخالقُ الرازق، ولكنه لم يؤمن بوحدانيته، فهو كافرٌ خارجٌ من (كوكبة) أهلِ الإيمان واليقين، قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

لقد كان المشركون يُقرُّون بأن اللّه هو الخالق، ولكنهم يعبدون معه غيرَه، من أوثان وأصنام، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فلم ينفعهم ذلكَ الإيمانُ بأنّ اللّهَ هو الخالق!؟

وكانوا يقرُّون للّه (بالخَلْق)، ولكنْ لا يعترفون له (بالوحدانية) فكانوا يقولون متعجّبين مستغربين: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] أي بالغُ العَجَب، وهو لفظٌ أبلغ من العجيب، لأن العُجابَ الأمرُ الذي لا مثيل له ولا نظير.!

قصة المشركين عند أبي طالب

روي أن المشركين اجتمعوا وذهبوا إلى (أبي طالب) عمّ النبي ﷺ الذي كان يَحميه، ويدفع عنه شرَّ سفهاء مكة، فقالوا يا أبا طالب: كفَّ عنّا ابن أخيك، فإنه يعيبُ ديننا، ويذمُّ آلهتنا، ويسفِّه أحلامنا ـ أي عقولنا ـ وإنّا لا نصبر على ذلك!!

فأرسل أبو طالب إلى رسول اللّه ﷺ يطلبه إليه، فلمّا حضر ـ كان عنده زعماء قريش وصناديدُ الكفر ـ فقال له: يا ابنَ أخي! ما بالُ قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهَتَهُم، وتعيبُ دينهم، وتسفِّه أحلامَهم!!

فقال له رسولُ اللّه ﷺ: يا عمّ، أريد منهم (كلمةً واحدة)، كلمةً يملكون بها العَجَم، وتَدينُ لهم بها العربُ!! ـ أي يعترفون بزعامتهم، ويدخلون في دينهم ـ!

فانتفض (أبو جهل) وقال له: أتريد منّا كلمةً واحدةً؟ وأبيك نعطيك إيّاها وعَشْراً معها!! ما هي هذه الكلمة؟

فقال لهم ﷺ: قولوا: (لا إلٰهَ إلّا اللّٰهُ) فقاموا فزِعينَ يَنْفُضون ثيابَهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦].

كلامُ الحافظ ابن كثير

قال الحافظ ابن كثير: أنكر المشركون قبْحهم اللّٰه أن يُقِرُّوا للّٰهِ بالوحدانية، وتعجَّبوا من ترك الشرك باللّٰه، فإنهم قد تَلَقَّوْا عن آبائهم عبادةَ الأوثان، وأُشْرِبَتْه قلوبُهم، فلمّا دعاهم رسول اللّٰه ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفرادِ اللّٰهِ تعالى (بالوحدانية)، أعظموا ذلك وتعجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

وقولُه سبحانه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ هم سادتهم وقادتهم ورؤساءهم من أهل الضلالة، يقولون: اسْتَمِرُّوا على دينكم، واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه (محمّدٌ) من التوحيد، فإنّ هذا أمر مدبَّر من محمد، ومكيدةٌ لصرفنا عن عبادة آلهتنا، لتكون له العزّةُ والشرفُ عليكم[1].

لقد كان عند كفار مكة (٣٦٠) ثلاثمائة وستون صنماً، كلُّ واحدٍ منها إلٰه بمفرده، يُعْبَد من دون اللّٰه، فلمّا جاءهم رسولُ اللّٰه ﷺ بدعوة التوحيد، قالوا يا محمد: تكلّمْ بالمنطق والعقل!! فإنّ عندنا الآلهة التي تقارب عدَدَ أيام السَّنَة، وهي لا تكفينا، أفنترك عبادتها ونعبد إلٰهاً واحداً؟ إنّ أمرك لعجيب، فلذلك نفروا من دعوته ﷺ واستمروا على الوثنيّة، والإشراكِ باللّٰه تعالى.

❁❁❁

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ١٩٦.

قصّةُ الأعرابيّ وآلهته السبعة

جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، يريد معرفة دين الإسلام، وأخذ يسألُ النبيَّ ﷺ: إلى ما تدعو يا محمد؟ فقال له عليه السلام: أدعوك إلى الإسلام، وإلى توحيد اللّهِ عزّ وجلّ!! ـ وكان هذا الرجلُ يُدعى (حُصَيناً) ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: يا حُصَين كم تعبدُ اليومَ إلهاً؟ فقال له حُصين: سبعةً!! ستةً في الأرض، وواحداً في السماء!!

فقال له ﷺ: إذا مسّك ضُرٌّ، أو حلّ بك بلاءٌ، أو كنتَ في فَلاة ـ يعني صحراء ـ فضلَّتْ راحلتُكَ، فمن تدعو؟

قال: أدعو الذي في السماء!

فقال له عليه السلام: فماذا نفعتك آلهتك الستة التي في الأرض؟

ثم قال ﷺ: يا حُصَيْنُ: أمَا إنك لو أسلمتَ، علّمتُك كلمتَيْن تَنْفعانك!؟ فأسلمَ حُصَيْن رضي اللّه عنه، وطلبَ من الرسول ﷺ أن يُعلّمه ما وَعَدَه به، فقال له ﷺ: قل: (اللّهمّ ألهمني رُشْدي، وأعِذْني من شرّ نَفْسي)[1].

اللّهُ عزّ وجلّ أيّد الرسلَ بالحجج الدامغة
قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمروذ

قصّ علينا القرآن الكريمُ، قصةَ الملكِ الجبّار (النمروذ) الذي جادَلَ وخاصَمَ، في أمر (وجود اللّه) ووحدانيته، مع نبيّ اللّه (إبراهيمَ) عليه السلام الذي عاش في عصره وزمانه.

كان النمروذُ قد ادّعى الألوهيّة، وزعَمَ أنه كالربّ يحيي ويميت، بل وصل به الكفرُ والفجور، إلى إنكار وجود اللّه تعالى، ولْنستمعْ إلى قصّته كما حدّثنا بها القرآنُ الكريمُ، حيث يقول تقدّست أسماؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ

(١) رواه الترمذي رقم (٣٤٧٩) وقال: حديث حسن، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٤/ ٣٤٢.

إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كان النمرودُ مَلِكاً طاغياً جباراً، دخل عليه (إبراهيم) عليه السلام، يدعوه إلى اللّهِ، وتركِ ما عليه من الظلم والجبروت، ودعوى الألوهية!! وجرت بينهما هذه المناظرةُ.

قال له إبراهيم الخليل: إنَّ الدليلَ على وجود ربي، أنه إلٰهٌ عظيم قدير، يُحْيي الخلْقَ من العَدَم، ثم يعيدهم إلى الحياةِ بعد الموت! وهذا أعظمُ برهانٍ على وجودِ الرحمٰن!؟

كان جوابُ الأحمق الفاجر له: وأنا ربٌّ أحيي وأميت!!

قال: وكيف ذلك؟ دَعَا السَّجَّانَ عنده، فقال له: ائتني برجلين من السِّجنِ، محكومٍ عليهما بالإعدام، فأتاه بهما، فأمَرَ بإطلاق سراحِ واحد، ثم قال: هذا أحييتُه، وأمر بقطع عُنُق الثاني، ثم قال: هذا أمتُّه!!

لمَّا رأى (إبراهيم) عليه السلام، حماقةَ هذا السفيه، وشَغَبه في الدليلِ، عَدَل إلى أمرٍ آخر، هو أجدى وأنفع في إفحام الخصم، لئلا يجِدَ ذلك الطاغيةُ الفاجرُ، مجالاً للشَّغَب والتلاعب.

فقال له: إذا كنت حقًّا إلٰهاً تدّعي الربوبية، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربُّ العالمين، فهذه الشمسُ أمامَك، تطلُع كلَّ يوم من المَشْرِق، وتغرب من المَغْرِب، فأرِنا عَظَمَتك وقدرتَك الباهرة، وغيِّرْ نظامَ الكون، فاجعلها تُشرق من المغرب، وتغرب من المشرق، ولو مرةً واحدة، لتُثْبِتَ للخلق عظمةَ ربوبيَّتك، ويعرفوا أنك إلٰه كربِّ العالمين، تقدر على فعل كل شيء، فيقرُّوا لك بالألوهية والربوبيّة!؟

وهنا أُسقِط في يده، وأصبحَ الفاجرُ الأحمق، مبهوتاً أمام هذه الحجة الدامغة، وانقطعت حجته أمام الحاضرين.

❀ ❀ ❀

قصّةٌ تمثيليةٌ
محاورةٌ بين الإيمان والكفر

ذكر الإمامُ الداعيةُ (بديعُ الزمانِ سعيد النورسي) الذي نوّر اللهُ بصيرته (قصةً تمثيلية) للتفريق بين الإيمان والكفر، فقال:

أخي الإنسان: إنْ كنتَ ترغبُ أن تفهم كيف أن الإيمان باللّه واليوم الآخر، أثمنُ مفتاح يحلُّ لك لُغْزَ الكون، ويفتحُ أمامَك باب السعادة والهناء، فأنصتْ معي إلى هذه (القصة التمثيلية) القصيرة.

(وَقَعَ جنديٌ في الحرب، في مأزق عصيب، إذْ أصبح جريحاً بجُرْح عميق، في يمينه وشماله، وخَلْفَهُ أسدٌ يوشك أن ينقضَّ عليه، وأمامَهُ مشنقةٌ يُعْدم فيها رفاقُه، وهي تنتظره.!

زدْ على ذلك، فقد صدر بحقِّه رحلةُ نفيٍ شاقة، إلى مجاهل (سيبيريا) ليقضي السجن المؤبّد هناك.!

نصيحة الرجل الصالح

وبينما كان هذا المسكينُ المبتلَى، مستغرقاً في أحلامه، في تفكيرٍ يائس، من واقِعِه المُفْجع، إذا برجلٍ صالح، يتلألأ وجهُه نوراً، كأنّه مَلَكٌ يظهر عن يمينه، ويخاطبه قائلاً:

(لا تيأسْ ولا تقنطْ، سأعلّمك شيئاً إن أحسنتَ استعمالَه، ينقلبُ ذلك الأسدُ (مَرْكَباً) أميناً، مسخّراً لخدمتك، وتتحوّلُ تلك المشنقةُ (أرجوحةً) مريحةً لطيفة تأنس بها، وسأعطيك دَوَاءً يُضَمِّدُ جراحَك المنتنةَ، زَهَراتٍ شذيّةً، تَعْبَق بالعِطْر، وسأزوّدك تذكرةَ سفر، تستطيع أن تقطع بها في يوم واحدٍ، مسافةَ سنةٍ كاملة، لتصل إلى قصر فخْم مَشِيد، تلقى فيه الأُنْسَ والرّاحة، وجرّبْ ذلك مرة واحدة، لِتتيَقّنَ من صحّته وصدقِه!!

الرجلُ الخبيث الماكر يدعوه للفجور

ثمّ على حين غِرّة، رأى رجلاً ماكراً خبيثاً، كأنه (الشيطان)، يأتيه من جهة اليسار، ومعه أنواع من الملابس، والحُليّ الفاخرة، وصورٌ جذّابة لنساءٍ عاريات، ومآكل شهيّة معها بعضُ المسكرات، وقفَ يناديه ويدعوه هاتفاً:

إليّ إليّ يا صديقي، أقبِلْ لنلهوَ معاً، ونستمتعَ بصُوَرِ الحسناوات الجميلات، ونطربَ بسماع الأغاني المتنوعة، ونتلذّذ بهذه المأكولات اللذيذة!

ولكنْ ما هذه التمتمةُ التي تردّدها يا صديقي؟

قال له الجريح: إنه تضرُّعٌ ودعاءٌ، لينقذني الله من هذا البلاء!!

قال له الخبيث: دَعْ عنك هذه الطّلاسِمَ والخُزَعْبَلات، ولا تعكِّرْ صفوة لذتنا، وأُنْسَ نشوتنا!! وما ذلك الذي بيدك الذي تحملُهُ وهل هو شرابٌ لذيذ؟

إنه دواءٌ وصَفه لي رجلٌ صالح، أشربُ منه كل صباح ومساء، لأشفى من جراحتي.

ارْمِهِ عنك بعيداً، إنك سالمٌ صحيح، ما بك شيء، ونحن في ساعة طربٍ، وأُنسٍ، ومتعة.!

وهكذا حاول بكل مكرٍ وخديعة، أن يُقنع الجنديَّ الجريحَ، بأحابيلِ خُبثِه ومَكْره، حتى بدأ ذلك المسكينُ، يركن شيئاً قليلاً إلى كلامه.!

وفجأةً دوّى صوتٌ كالرعد عن يمينه، يحذّره قائلاً:

إيّاك أيها الجنديُّ أن تنخدعَ!!

قل لذلك الماكر الخبيث: إنْ كنتَ تستطيع قتلَ الأسدِ الرابض خلفي.. وأن ترفعَ أعوادَ المشنقة من أمامي.. وأن تَشْفيني من جراحي.. وأن تَحُولَ بيني وبين رحلتي الشاقّة، فهيّا أرني ذلك، وهاتِ ما لديكَ!؟ ولكَ بعد ذلك أن تدعوني إلى اللهو والطرب.!

وإلّا فاسكتْ أيُّها الأحمقُ الفاجرُ، ليتكلّم ذلك الرجلُ النّاصحُ، الصادق!!

فيا أيتها النفسُ الباكيةُ على أيام شبابها، إعلمي علم اليقين:

أنَّ ذلك (الجنديَّ) المسكين، هو أنت، هو الإنسانُ المخدوع في هذه الحياة.

وأنَّ ذلك (الأسدَ الهصور) هو الأجلُ، الذي لا بدَّ أن يذوقه كلُّ إنسان.

وأنَّ (أعوادَ المشنقة) هي الموتُ، والفراقُ للأحباب.

وأنَّ (النَّفْيَ والسَّفرَ الشاقّ) هو رحلةُ الابتلاء والامتحان، للوصول إلى دار الخلود، في دار النعيم، أو دار الجحيم.![1]

❁ ❁ ❁

(١) رسالة الطبيعة للنورسي.

العلاج الشافي في الإيمان بالله

وأنّ (الدّواء والعلاجَ الشافي) هو الإيمانُ بالله، واليوم الآخر.

نعم إن **الإيمان بالله واليوم الآخر**، يجعل هذا الموت كأنه بُرَاقٌ، يُخرج الإنسانَ المؤمنَ، من سجْن الدنيا إلى رياض الجنان، ويُضفي على هذه الحياة، نعمة الرضا والاطمئنان، لأنّ من يعتمد بهويّة ضعفه وعجزه، على (سلطانِ الكون) ربِّ العزة والجلال، الذي بيده ملكوتُ كل شيء، والذي يقول للشيء: كن فيكون، كيف يَجْزَع ويضطرب؟ بل إنه يثبت أمام أشدّ المصائب، واثقاً بالله ربه، مرتاحَ القلب، مطمئنّ البال، وهو يردّد ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وهكذا شأن الإيمان، وشأنُ الكفر، وصدق الله حيث يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾[1] [الرعد: ٢٨، ٢٩].

❁❁❁

(١) انظر رسالة (الطبيعة) لبديع الزمان النُّورسي رحمه الله، وقد نقلنا هذه القصة الرمزية من رسالة (رسائل كليات النور) مع بعض التصرُّف اليسير.

بعثةُ الرسل الكرام بدعوة التوحيد

إذا تتَّبعنا دعوة جميع الرسل الكرام، منذُ فجر الرسالة، منذُ بعث اللّه تعالى (نوحاً) عليه السلام إلى قومه، إلى أن خَتَمَ اللّهُ الرسالةَ، ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد) ﷺ، نجد أن دعوتهم كانت واحدةً، هي الدعوة إلى (توحيد اللّه) عزّ وجل، والإقرار له بالألوهية، والوحدانية.!

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

نوح عليه السلام يدعو إلى توحيد اللّه

الأول: هذا (نوح) عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد اللّه ـ وهو أولُ رسولٍ أُرسل إلى الناس ـ يقول عنه القرآن الكريم: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

هود عليه السلام يدعو للتوحيد

الثاني: وهذا رسولُ اللّه (هود) عليه السلام، وقد أُرسل إلى قوم عاد، وكانت مساكنهم بالأحقاف في اليمن، يقول عنه القرآن الكريم: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ [الأعراف: ٦٥].

أي ليس لكم إلٰه يستحقُّ أن يُعْبَد، غيرُ خالقكم وربِّكم، أفلا تخافون عذاب اللّه تعالى إن عبدتم غيره! ؟

صالح عليه السلام يدعو إلى الوحدانية

الثالث: وهذا رسولُ اللّه (صالح) عليه السلام، وقد أُرسل إلى قبيلة (ثمود) وقد كانت مساكنهم بالحِجْر، بين الحجاز والشام، يقول عنه القرآن الكريم:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ

﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

لِننظُرْ ماذا قال لقومه؟ وماذا دعاهم إليه؟

دعاهم إلى توحيد اللّٰه عزّ وجل وقال لهم: يا قوم وحِّدوا اللّٰه، ولا تشركوا به، فليس لكم إلٰهٌ مستحقٌّ للعبادة غيرُه، وقد جئتكم بمعجزة واضحة، تدلُّ على صدقي، هي هذه (الناقةُ) تخرج من صخر أصمّ، وأضاف الناقة إلى اللّٰه (ناقةُ اللّٰه) تعظيماً وتشريفاً لها، لأنها خُلقت من غير واسطة، بقدرة اللّٰه تعالى من صخرة صمّاء، بناءً على طلبهم، لمعجزة خارقةٍ منه!

دعوة شعيب عليه السلام إلى الوحدانية

الرابع: **وهذا نبيُّ اللّٰه ورسولُه (شعيب) عليه السلام**، وقد أُرسل إلى أهل مَدْين، وهي مدينة في شرق الأردن قرب مَعَان، يدعو قومه إلى التوحيد، فيقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية [الأعراف: ٨٥].

قال لهم: وحِّدوا اللّٰه واعبدوه، فليس لكم إلٰه غيرُه يستحقُّ العبادة!!

دعوةُ عيسى عليه السلام إلى توحيد اللّٰه تعالى

الخامس: **وإذا تابعنا دعوةَ جميع المرسلين صلوات اللّٰه عليهم وسلامه أجمعين**، نجد أن دعوتهم كانت واحدة، إلى (خاتم الرسل) من أنبياء بني إسرائيل، وهو سيدنا (عيسى بنُ مريمَ) فقد كَشَفَ لنا القرآن عن حقيقة رسالته، وما دعا إليه قومَه، من توحيد اللّٰه عزّ وجل، والكفِّ عمّا زعموه في حقه من (الألوهية) ـ وحاشاه أن يدعوهم إلى هذا وقد جاءهم بدعوة التوحيد الخالص ـ حيث يقول عنه القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

السيد المسيح يتبرّى من دعوى الألوهية

أرأيتُمْ أصرحَ من هذا القول، في الإيمان بالله وتوحيده؟

وقد نَسَجَتْ طائفة كبيرة من النصارى، هذا النسيجَ العجيبَ الغريب، فزعموا أن اللّه تعالى، قد حلّ في جَسَد عيسى، واتّحدَ به، فعيسى هو اللّه!! وهو ثالثُ ثلاثة!! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

اللّهُ جلّ جلالُه ـ في نظرهم واعتقادهم ـ مكوّنٌ من ذاتين: «اللّاهوتية» و«الناسوتيّة» أي حلّتْ ذاتُ (اللّهِ) في ذات (عيسى)، فهو قد جَمَع بين كونه (إلهاً) وكونه (إنساناً) ولهذا اعتقدوا الألوهية في المسيح، فقالوا: إنّ مريمَ ولدت إلهاً، تعالى اللّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً!!

أمّا السيد المسيح فيقول لهم بصريح العبارة ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

أي أنا عبد اللّهِ مثلكم، فاعبدوا اللّه خالقي وخالقكم، ثم يؤكّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي ومن يشرك باللّه فيعبد غير اللّه، أو يعتقد بألوهيّةِ أحد من البشر، فالجنّةُ محرّمة عليه، ولن يدخلها أبداً، ومصيرُه نارُ جهنم.!

السيّدُ المسيحُ يعترفُ بالعبوديّةِ للّهِ جلّ وعلا

والعجيبُ في أمر النصارى، أنّ أوّلَ كلمةٍ نَطَق بها (عيسى) عليه السلام وهو في المهد، طفلٌ رضيع، أنه قال لأتباعه من بني إسرائيل: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

وكان ذلك معجزةً تدلُّ على صدق نبوّته، لأنه نطق بها وهو طفلٌ رضيع.!

ولا نجد في الأناجيل ذِكْرَ هذه المعجزة، وهي قولُه ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾[1]

---

(١) هذا هو نصُّ الآية الكريمة: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].

لأنها تُبطِلُ مزاعمَ النصارى في (ألوهيّة) المسيح عليه السلام، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سَواطعِ البراهين والمعجزات.!

براءة عيسى عليه السلام من دعوى الألوهية

وسوف يشاهد الخلائقُ جميعاً براءةَ السيد (المسيح) من هذه الدعوى، في مَشْهدٍ حافل على رؤوس الأشهاد، يوم (الحشر الأكبر) حيث يلتقي جميع البشر، ويُدعى السيد المسيح «عيسى بن مريم» ويسأله ربُّ العزة والجلال، فيقولُ ما حدّثنا عنه القرآنُ:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

هنا يعلن براءته من دعوى (الألوهية)، ثم يقرّر الحقيقة التي أمرهم بها، ودعاهم إليها، فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ . . .﴾ [المائدة: ١١٧].

أي ما قلتُ لهم إلا ما كلّفتني به من أمر، وهي عبادتُك وحدَك يا ربّ، وأنت شاهد على ذلك!

وهكذا تتجلى (دعوةُ التوحيد) في رسالة (عيسى) عليه السلام صافيةً خالصةً أنَّ اللّهَ وحْده، هو الإلهُ المعبودُ، وليس هناك إلهٌ غيرُ اللّه! ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

❁❁❁

توحيدُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ أصلُ الإيمان

التوحيد ـ اعتقاد أنَّ اللَّهَ واحد ـ هو أصلُ الإيمان، وبه جاءت جميع الشرائع والأديان، بل هو الغايةُ الأساسيةُ من بعثة الرسل الكرام ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

وهذا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، من خلق هذا الكون، فالإلهُ الحقُّ لا يتعدَّد، بل هو واحد أحد، فردٌ صَمَد، لا يكون له شبيهٌ، ولا نظيرٌ، ولا مثيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

تصوَّرْ في مملكة واحدةٍ مَلِكان، كلُّ واحدٍ منهما ملِكٌ مستقلٌ، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، ماذا سيحدث؟

لا بدَّ أن تختلف الرغباتُ، ويكون بينهما التنازعُ والتَّخاصمُ، وهذا ما قرَّره القرآن الكريم، في سياق إثبات (وجود اللَّه) و(وحدانيته)، حيث قال تقدست أسماؤه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢] أي هل عبدوا آلهة تقدر على إحياء الموتى؟ لو كان في الوجود إلهٌ غيرُ اللَّهِ، لفسد نظامُ الكون، لِمَا يحدُث بين الآلهة المتعدِّدة، من الاختلاف والتنازع.!

۞ ۞ ۞

مثلان يوضّحان بطلان التعدّد

نضرب مثلين اثنين لبطلان التعدد:

المثل الأول: في مملكةٍ واحدة مَلِكان، كلٌّ منهما يريد الاستقلال بالمُلْك، هذا يُصدر قوانينَ ومراسيمَ، والثاني يصدر ما يخالِفُها ويبطلها، والشَّعْبُ حائرٌ لمن يستجيب؟ ولمن يُطيع؟

في هذه الحالة لا بدّ أن يقع التنازعُ بينهما، فيسعى كلُّ واحدٍ منهما للإطاحةِ بالآخر، والانقلاب عليه، حتى يتغلّب أحدهما على الآخر ويقضيَ عليه، ويستقرّ المُلْكُ له وحده.!

تابعْ معي وتصوّرْ بأنّ مجرماً اختطف طفلاً، ثم ذَبَحه بيده على مرأى ومَسْمع من جماهير الناس.!

الملك الأول: غَضِبَ غضباً شديداً، وقال هذا يحدُثُ في مملكتي؟ يجبُ إعدامُ هذا المجرم الأثيم، لنصونَ الدّماء، ونحفظَ حياة البشر، ونصونَ هيبة الدولة!!

الملك الثاني: قال لا يجوز إعدامُ هذا، فإنّ إزهاقَ روحِ إنسان (جريمةٌ بشعة)، لا أوافق عليها، ماذا تقول عنّا الأممُ المتحضّرة؟ ألا يقولون: هذه (رجعيّةٌ) وعملٌ وحشي!؟

إنما أسجنه عشرَ سنوات، ثم أطلق سَراحه، فلعلّه يتوبُ، ويصبح عضواً نافعاً في الحياة!!

هذا منطقُ الأوربيين اليوم، إلغاء (قانون الإعدام) رحمةً بالمجرمين!

كيف يستقيم أمرُ هذه الدولة، وفيها التنازعُ بين المَلِكَيْن الحاكِمَيْن!؟

المَثَلُ الثاني

المثل الثاني: مديران عُيّنا في مدرسة واحدة، فيها طلاب كثيرون يزيدون

على الألف، دخلا المدرسة كرئيسين لها، بنفس العمل، ونفس الوظيفة والمرتّب، على أنّ كلّاً منهما مديرٌ، يدير شؤونَ المدرسة كما يشاء.

ظَهَر في المدرسة طالبٌ كسولٌ مشاغب، يُؤذي الطُلّاب، ويهدّد الأساتذة، ويقوم بأعمال سفيهة، تُخلُّ بالآداب، ويجرّئ بعضَ الطلاب على الاستخفاف بالأساتذة.

ضجّتْ منه المدرسة وضجّ منه الطلاب.!

المدير الأول: اتخذ قراراً بفصله من المدرسة، لئلّا تسري عَدْواه إلى الطُلّاب، ويُجرّأهم على عصيانِ أوامر الإدارة.!

المديرُ الثاني: قال: لا، لا يجوزُ أن نحرمَهُ من العلم، فالعلمُ حقٌّ لكل طالب، سواءٌ كان الطالب مؤدّباً أو غير مؤدّب، وإنما نعاقبه كلّما أساء!!

وقع بينهما نزاع شديد بسبب ذلك، كاد يفضي إلى أن يبطش أحدُهما بالآخر، ووصلَ الأمرُ إلى وزير التعليم، فقضى بنقل أحدهما إلى التدريس في مدرسة أخرى، وثبّتَ الأول مديراً لتلك المدرسة، لأنه كان مصيباً في قراره.!

أفرأيتم كيف يحصُلُ التنازعُ والتخاصمُ في أمر بسيط، من أمور الدنيا، كرئيسين في دائرة، أو مديرين في مدرسة!!

فكيف يكون حالُ الدنيا، لو كان فيها إلهان اثنان؟ كلٌّ يُسَيّرُ الكونَ حسْبَ مشيئته وإرادته؟

ألا يشتدُّ النزاع والصراع بينهما؟

ألم نسمع بالانقلابات العديدة، التي تحدث في البلاد بسبب التنازع على السلطة، فكيف لو كان للكون أكثرُ من إله؟ وهنا ندرك معنى قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي لفسد نظام السموات والأرض، وفَسَد نظامُ الكون بأجمعه.

❁❁❁

المقارنة بين عقيدة (التوحيد) وعقيدة (التثليث)

عقيدةُ التوحيد هي العقيدةُ النقيّةُ الصافية المبسّطة السهلة، التي يقبلها العقل، وتقتضيها الحكمةُ، وهي اعتقادُ أنّ اللّهَ الذي خَلَقَ الكونَ، ونظّم شؤونه، هو إلهٌ واحد، ليس له شريكٌ في ملكه، ولا يشابُهه أحد لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، هذه العقيدةُ هي التي جاء بها جميع الرسل صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم أجمعين، اسمع قول الحقّ جلّ وعـــلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

أمّا عقيدة (التثليث) فباطلة وهي اعتقاد أنّ الآلهة ثلاثة «اللّهُ» و«عيسى» و«روح القُدُس» كما هي عقيدةُ النصارى، ولهذا اشتهر قولهم: (الآب، والابن، وروح القدس) فجعلوا اللّهَ تعالى (ثالثَ ثلاثة)، وقد حكم القرآن الكريمُ عليهم بالكفر، والخروج عن (عقيدة التوحيد) التي جاء بها السيد المسيح (عيسى بن مريم) عليه السلام.!

اقرأ قول الحقّ جلّ جلاله فيهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤].

عقيدةُ التثليث يرفضُها العقل

لقد اخترعوا عقيدة لا يقبلها عقل، تدعو إلى الدهشة والاستغراب، فقالوا: إنّ الإله جوهرٌ واحد، حلّ في ثلاثة أجسام: (آب، وابن، وروح قُدس) وهذه الثلاثة إلهٌ واحد!!

ومثّلوا لذلك بالشّمس تحتوي على ثلاثة أشياء (قرص، وشعاع، وحرارة) وهي واحدة، وهذا احتقار للعقل الإنساني، وضَحِكٌ على العوامّ من

البسطاء، فالشمسُ واحدة، وإن كان فيها ما لا يحصى من الأشياء (نور، وحرارة، وعواصف، وانفجارات ذريّة، وتفاعلات مغناطيسية، وبراكينُ تقذف بالحُمَم إلى آلاف الكيلومترات) إلى غير ذلك، ولكنها شمسٌ واحدة، أمّا (الآب) فهو غيرُ (الابن)، وغيرُ (روح القدس)، وروحُ القُدُس غيرُ (الابن) وغيرُ (الآب)، فكيف تكون الثلاثةُ واحداً، والواحد ثلاثة؟ أليس هذا إزراءً بالعقل؟ وهو أظهرُ في البطلان من الشمس في وَضَح النهار!؟

وبعد هذا البيان يقرّر القرآنُ الكريم، الحقيقةَ ناصعةً جلية، فيقول في حقيقة أمر عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

أي ليس السيد المسيح إلّا أحدَ الرسل الكرام، وليس فيه من صفاتِ الألوهية شيء، وقد سبقه رسلٌ كثيرون، أتوا بمعجزات باهرة، فإنْ كان (عيسى) قد أحيا اللّهُ الموتى على يده، فقد أحيا اللّهُ العصا في يد (موسى) فصارت حيّةً تسعى، وهي من خشب، وهذا أمرٌ أعجب، وإنْ خُلِقَ عيسى من غير أب، فقد خُلق (آدمُ) من غيرِ أبٍ ولا أم، وهذا أغرب، فلماذا يُضفُون على سيّدنا (عيسى) صفات الألوهية!؟

مع روعةِ التعبير المعجز

لقد كان عيسى عليه السلام وأمّه كسائر البشر، يأكلان الطعامَ، ويُحدثان الحَدَث، فكيف يكونان إلٰهين؟

ولْنقفْ وقفة تأمّل، أمام روعةِ التعبير القرآني المعجز، وأمام قوة حجته وبيانه، حيث يقول الحقُّ جلّ جلالُه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥] فقد أشار بهذه اللفتة البديعة، إلى أنّ من يأكلُ الطعامَ، ويشربُ الشّرابَ، يحتاج إلى إخراجِ الفَضَلات، يحتاج إلى التبوُّل والتغوُّط، والقرآنُ الكريمُ يتنزّه عن ذكر الألفاظ القبيحة غير

المستحسنة، لذلك لم يقل: كانا يبولان ويتغوّطان، ويُحدثان الحَدَث، ويذهبان إلى (التواليت) ولكنّه كنّى عن ذلك، بهذا التعبير الراقي، الذي يسمو به إلى ذروة (الإبداع والبيان) فقال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ للإشارة إلى أنّ من يأكل الطّعام، يحتاج إلى إخراج الفضلات، والربُّ ـ جلّ جلالُه ـ منزّهٌ عن ذلك، فكيف يكون عيسى وأمُّه إلهين؟ فافهم أيها الإنسانُ العاقلُ، وتدبّرْ دقائق أسرار القرآن العظيم!!

الكون يشهد للّهِ عزّ وجلّ بالوحدانية

إنّ عظمةَ هذا الكون الفسيح، ودقّةَ إبداعه وإتقانه، تدلُّ على وحدانيته سبحانه وتعالى، وباهرِ عظمته وسلطانه.

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ وَاحِـدُ

وتنبيهاً على أهمية (عقيدة التوحيد)، وتفخيماً لشأنها، فقد شهد تعالى لنفسه بالوحدانية، وشهدت الملائكةُ وأهلُ العلم له بذلك، لأن الاعتقادَ بوحدانية اللّه عزّ وجل، هو الأصلُ الذي قامت عليه السمواتُ والأرضُ.

قال اللّهُ تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

آيات الوحدانية في القرآن العظيم

ويطالعُنا القرآنُ في آياته الباهرات، بالأدلّةِ القاطعة على (وحدانية اللّه) عزّ وجلّ في كلّ ما خلق وبَرأ، اقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقولُه عزّ شأنه: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وقولُه جلّ شأنه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

ولو ذهبنا نستقصي آيات الوحدانية، لضاقَ بنا المجال، فإنها أكثرُ من أن تُحصى، وهذه تسمى (الأدلة النقلية) على وحدانيته سبحانه وتعالى.!

❁ ❁ ❁

الأدلةُ العقلية على الوحدانية

أما الأدلة العقلية: فقد ذكرنا بعضها فيما سبَقَ، ويكفي هنا أنْ نذكر منها دليلين اثنين: دليلَ (العناية والإتقان) ودليل (التنظيم والاختراع) فحين نرى الإتقان في كل ذرّة من ذرّات الوجود، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والشجر، والثمر، نستيقن أن صانعها ومهندسها واحد، أبدع صنعته، وأتقن خلقه.!

ولو كان الصانع أكثر من واحد، لتباينت الأشكالُ والصُوَرُ، واختلفت ملامحُ البشر، فمنهم قِذْم، ومنهم عملاق، ومنهم من صورتُه صورةُ إنسان، وهو بوجهِ قردٍ مثلاً.

ولكانت النُطْفةُ التي يُلْقِيها الرجلُ في رحم المرأة، تأتي بعجائبَ وغرائبَ من أشكال المخلوقات المتباينة، ولكنّ الخالقَ المبدعَ الحكيمَ، جعل خلْقَ الإنسانِ متناسباً، في أحسن هيئة، وأجملِ صورة، جعله سويًا، سالمَ الأعضاء، وجَعَلَه معتدل القامة، في أبدع الهيئات والأشكال، يسمعُ، ويبصر، ويعقل، أليس في هذا برهاناً على الوحدانية؟

الإبداعُ في خلق الإنسان

استمع إلى قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار: ٦ ـ ٨].

أي في أي صورة شاءها لك ربُّك، من الصور الحسنة العجيبة، اختارها لك فخلقك فيها، ولو شاء لجعلك في صورة كالقرد، وكالبهيمة، وكالخنزير، ولكنّه بفضله وإنعامه، خَلَقَك في أحسن صورة، فجعلك معتدلَ القامة، متناسبَ الأعضاء، بحيث صارت كلُّ أعضاء الجسم متساوية، لا تفاوتَ بينها ولا تناقض، فلو كانت إحدى العينين، أوسعَ وأضخم من الأخرى، أو إحدى

الرجلين أطولُ من الأخرى، أو إحدى الأذنين تشبه أذنَ الأرنب، والأخرى تشبه أذن الفيل، لكان منظرُ الإنسان مشوّهاً غير مستحسن.!

فهذا الإتقانُ والإبداعُ، دليلٌ على وحدانية الخالق جلّ وعلا ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ثم أمعنْ النظر في هذه السماء الجميلة، المزيّنة بالكواكب المضيئة وبالشمس والقمر، وكلّها تدور في هذا الكون الفسيح، في صَمْتٍ وسكون وهدوء، بأمر إلهٍ قدير، وبتدبيرٍ واحدٍ حكيم، ولولا هذا (النظامُ المحْكَم) لكانت تلك الأجرام الهائلة، تُحدثُ بحَرَكاتها الرهيبة، أصواتاً مدوّيةً مخيفة، تَصُمُّ أسماعَ البشر، وتُحدث من الاضطراب والاختلاط، ما يجعل (الكرة الأرضيّة) مسرحاً للفزع والهَلَع، والهلاك والدّمار.!

تصوّرْ أنّ عشرين ثوراً، أُطلقوا في حقلٍ من الحقول، فثار بعضُهم على بعض، وكان بينهم من الصِّدام، والهَرْج، والمرج، ما لا يتصوّرُه مخلوق، فكيف بأجرامٍ سماوية، هي أضخم من كرتنا الأرضية، بمئات آلاف المرّات، تنطلق في سرعة هائلة، هي أسرعُ من القذيفة بسبعين مرة ـ كما يقول علماء الفَلَك ـ كيف يكون حال الناس، لولا النظام المحكم الذي أوجده الله، ورتّب حركة الكون عليه؟ أفلا يدلُّ هذا النظامُ البديع، على (وحدانية) الخالق جلّ وعلا؟

وهنا نتفكر عظمة هذا الإله الجليل، ونتدبّرُ قولَ الله العلي الكبير:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ • وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ • لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

ومن هذا النظام البديع، تدركُ سرّ قول الله عزّ وجل، الذي يذكّر بآياته، على وحدانيته ووجوده:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

أي لو فرضنا أن الله تعالى تخلّى عن إمساكهما، فمن يمسكهما غيرُه؟

ولو أبطل المولى جلَّ وعلا القانونَ والنظام، الذي تسير به هذه الأفلاك الضخمة، فمن هو القادر الذي يستطيع أن يعيد إليهما النظام والانضباط؟

ولعلَّ في هذه الآية المعجزة، ما ينبِّهنا به اللَّهُ تعالى على (حركة الأرض ودورانها)، كبقية النجوم والكواكب، وهي لفتة بديعة إلى حركة الكون كلِّه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فالأرضُ، والشمسُ، والقمرُ، والنجومُ، كلُّها تسبح في هذا الفضاء الفسيح، ولو كانت الأرضُ واقفةً عن الحركة، أو ثابتةً على شيء، لَمَا احتاجت إلى الإمساك[1]!!

أفلا يدلُّ هذا النظام المحكم، على وحدانية اللَّه وجلاله وعظمته؟ وعلى سعة قدرة القدير، ومدى انقياد هذه المجرَّات والنجوم، وخضوعها لأوامر الواحد الأحد؟ فسبحان ذي المُلْك والملكوت، والعزة والجبروت، الذي أبدع صنعه وخلقه!! ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

❁ ❁ ❁

(١) انظر كتابنا حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن الكريم.

صفة الوحدانية في سورة الإخلاص

سورة الإخلاص من السور المكية، التي نزلت لتوضيح صفات الله تبارك وتعالى، وبيان وحدانيته وجلاله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

نزلت السورة الكريمة، حينما جاء بعضُ المشركين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له يا محمد: صِفْ لنا ربك ـ أي بيِّنْ لنا من أيّ شيء هو؟ ـ وما هي أوصافه؟ أمِنْ ذهبٍ هو؟ أم من فضّة؟ أم من زَبَرجدٍ؟ أم من ياقوت؟ فنزلت هذه السورة الكريمة.

وإذا نظرنا إلى صيغة سؤال هؤلاء المشركين، عرفنا تَفاهةَ عقولهم، وقِصَر نظرهم!؟

كيف لا، وهم عبدة أوثان وأصنام، نُحتت بأيديهم من الحجارة!؟ وهم حين عبدوا تلك الحجارة، ما كان تصوُّرهم إلّا أنَّ ما يدعو إلى عبادتِهِ محمّدٌ ﷺ، لا بدَّ أن يكون أعظَمَ ممّا يعبدونه هم، من شيء أفخَمَ من الحجارة، فقالوا: (أمِنْ ذهبٍ هو؟ أم من فضّةٍ؟ أم من زَبَرْجَد؟ أم من ياقوت!؟).

هذا كلامٌ يدلُّ على سفاهةٍ وبلاهةٍ، ولهذا جاء الردُّ المحكَمُ على سؤالهم، من ربٍّ حكيم، في سورةٍ كاملة قصيرة، وضّح تعالى فيها صفاته الجليلة.

توضيح معنى السورة الكريمة

ولْنشرحْ معنى هذه السورة الكريمة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

أي قل لهؤلاء المشركين المستهزئين: إنَّ ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته، هو إلٰهٌ عظيمٌ جليل، متصفٌ بكل صفات الكمال، هو إلهٌ واحدٌ أحد، فردٌ صَمَد، لا شبيه له ولا نظير، ولا وزير، ولا عديل، واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في أفعاله.

لَا ذَاتُهُ تُشْبِهُهَا الذَّوَاتُ وَلَا حَكَتْ صِفَاتِهِ الصِّفَاتُ

ومعنى الصَّمَد: السيِّدُ الذي انتهى إليه العِزُّ والسُّؤْدُدُ، والذي يطلب النَّاسُ حوائجَهُم ومسائِلَهم منه، يحتاج الخلقُ إليه، وهو الغنيُّ عن العالمين.!

قال ابنُ عباس: (الصَّمَدُ) هو السيِّدُ الذي قد كَمُل في سُؤدده ـ أي رفعته ـ والشريفُ الذي قد كَمُل في شَرَفه، والعظيمُ الذي قد كَمُل في عظمته، والعليمُ الذي قد كَمُل في علمه، هو اللَّه الذي ليس له كفءٌ، وليس كمثله شيء، وهو الواحد القهار[1].

ومعنى الكفء: الشبيهُ والمثيلُ، أي لا يشبهه تعالى أحدٌ من الخلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُه تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي ليس له ذرية من بنين وبنات.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي إنه تعالى لم يُولد من والد، فإنه ليس له أب، ولا أمٌ، لأن كلَّ مولودٍ حادث، واللَّهُ أزليٌّ قديم، وكلُّ حادث إلى الفناء، واللَّهُ باقٍ دائم لا يموت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالجملة الأولى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نفيٌ للذريَّة والبنين.!

والجملة الثانية ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفيٌ للوالِديَّة، أي ليس له أبٌ، ولا أم.

والجملةُ الثالثة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفيٌ للشبيه، والمثيلِ، والنظيرِ.!

❁❁❁

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣١/ ١٧٥.

الردُّ على فِرَقِ أهل الضلالة

وهذه السورة الكريمة على وَجازتها، قد أثبتت صفات ربِّ العزة والجلال، الكبير المتعال، فنزَّهته عن صفات العجز والنقص، وأثبتت له صفاتِ العظمة والجلال، وردَّت بأسلوبها المعجز، على فِرَقِ أهل الضلالة جميعاً (اليهود، والنصارى، والمشركين) عبدةِ الأوثان.!

فاليهود قالوا: (عُزير بنُ الله)، والنصارى قالوا: (المسيح ابنُ الله)، والإلهُ مجموع من ثلاثة أقانيم (الآب، والابن، وروح القدس) والثلاثة واحد.

والمشركون قالوا: (الملائكةُ بناتُ الله)، فكذَّبهم الله جميعاً، وأثبتَ في هذه السورة الوحدانية لنفسه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفكرةُ إثبات الولد لله عزَّ وجل، فكرةٌ سخيفة حمقاء، لا تصدر عن عاقل، ذلك لأنَّ الولَد لا يأتي إلّا من زوجة، وتنزَّه الله عن الزوجة والولد، ولهذا قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

دعوى ألوهيَّة المسيح باطلة

والأعجبُ من كل هذا، أنهم يعتقدون بألوهية المسيح، ثم يزعمون أنه صُلب، ولماذا صُلب؟ يقولون: ليكفِّر ذنوبَ بني آدم، عجباً والله!! كيف يكون إلهاً ويُصلب؟

ويعتقدون بأنه وُلد من مريم، ويسمونه (عامَ الميلاد) ويحتفلون به احتفالاً كبيراً، فكيف يكون إلهاً، وقد خرج من فَرْج امرأة؟ ووُلد كما يولد البشر!؟ أفلا يخجلون على أنفسهم من هذا الزعم الباطل!؟

وإن قالوا: إنه (ابنُ الله) قدَّمه الله قرباناً من أجلنا، فصُلب من أجلِ الخطيئة التي اقترفها البشر!!

فنقول: هل هذا من العدل؟ أن يُعاقَبَ إنسانٌ من أجل ذنبٍ اقترفه غيره؟

أَمَا كان يستطيع الربُّ أن يكفِّر ذنوب بني آدم، من غير أن يُقدِّم وَلَدَه للصلب؟

ومن هنا جاءت براهين التوحيد، ساطعةً مستفيضةً في القرآن الكريم، بأساليبَ شتَّى، ومنطقٍ سليم، بعيداً عن الخرافات والأساطير، ليكون الإنسانُ على بيِّنةٍ من أمر دينه، فعقيدةُ التوحيد عقيدةُ جميع الأنبياء والمرسلين، وهي العقيدةُ الصحيحة التي يَقْبَلها اللَّه تعالى دون غيرها، لأنها تتفق مع المنطق والعقل.!

وهذه هي (عقيدة المسلمين) النقيَّةُ الصافيةُ التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين في قول الْحقِّ جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولْنُصغِ السمعَ إلى ما جاء في الحديث القدسي حيثُ يقول اللَّه تعالى:

(كذَّبني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك ـ أي لا ينبغي له أن يكذِّب خالقَه ـ وشَتَمَني ولم يكن له ذلك!! فأمَّا تكذيبه إيَّاي؟ فقولُه: لن يعيدني كما بدأني ـ أي لا يستطيع أن يحييني بعد الموت ـ وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته.!

وأمَّا شتمُهُ إيَّاي؟ فقولُه: اتَّخذ اللَّهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصَّمدُ، لم ألِدْ ولم أولد، ولم يكنْ لي كُفُواً أحد[1]). كُفواً: أي شبيهاً ومثيلاً.

حقاً إن هذا الاعتقاد بأن اللَّه تعالى له ولدٌ، شتيمةٌ ومسبَّةٌ للخالق جلَّ وعلا، ولكنَّ اللَّهَ تعالى حليمٌ بالعباد، لا يعجِّل لهم العقوبة، مع كثرة كفرهم وجحودهم لنِعَم اللَّه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

وصَدَق ربنا العظيمُ الجليل، حين قال في كتابه العظيم، عن هؤلاء المفترين ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

(إِدّاً) أي منكراً شنيعاً عظيماً من الافتراء.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة الصَّمد ٨/٥٦٨ فتح الباري.